أيها البـــــحر!

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

إذا احْتَدَمَ الصيفُ ، جعلتَ أنت أيُّها البحرُ للزمن فصلاً جديداً يسمى « الربيعَ المائى »

وتنتقلُ إلى أبامِك أرواحُ الحدائق ، فتنبتُ فى الزمن بعضُ الساعاتِ الشهيةِ ، كأنها الثمرُ الحلوُ الناضجُ على شجره

ويُوحى لونُكَ الأزرقُ إلى النفوس ما كان يوحيه لونُ الربيعِ الأخضر ، إلا أنه أرقُّ وألطف

ويرى الشعراءُ فى ساحلك مثلما يرون فى أرض الربيع ، أنوثة ظاهرة ، غير أنها تلدُ المعانىَ لا النبات

ويُحِسُّ العشاقُ عندك ما يُحِسُّونه فى الربيع : أن الهواءَ يتأوَّه . . . .

* * *

فى الربيع ، يتحرك فى الدم البشرىِّ سرُّ هذه الأرض ؛ وعند « الربيع المائى » يتحرك فى الدم سرُّ هذه السُّحُب

نوعان من الخمر فى هواء الربيع وهواء البحر ، يكون منهما سكرٌ واحدٌ من الطرَب

وبالربيعَيْن الأخضر والأزرق ينفتح بابان للعالم السحرىِّ العجيب : عالَمِ الجمالِ الأرضىِّ الذى تدخله الروحُ الانسانية كما يدخلُ القلبُ الحبُّ فى شعاع ابتسامةٍ ومعناها

* * *

فى « الربيع المائى » ، يجلسُ المرءُ وكأنه جالسٌ فى سحابةٍ لا فى الأرض

ويشعرُ كأنه لا بسٌ ثياباً من الظلّ لا من القماش ؛ ويجدُ الهواءَ قد تنزَّه عن أن يكون هواءَ التراب

وتخِفُّ على نفسه الأشياءُ ، كأن بعضَ المعانى الأرضية انتزعتْ من المادة . وهنا يدركُ الحقيقة : أن السرور إن هو إلا تنبُّهُ معانى الطبيعة فى القلب

* * *

وللشمس هنا معنى جديدٌ ليس لها هناك فى « دنيا الرزق » تُشرقُ الشمسُ هنا على الجسم ؛ أما هناك فكأنما تطلُعُ وتغرُب على الأعمال التى يعملُ الجسمُ فيها

تطلعُ هناك على ديوان الموظف لا الموظف ، وعلى حانوت التاجر لا التاجر ، وعلى مصنع العامل ، ومدرسة التلميذ ، ودار المرأة

تطلع الشمسُ هناك بالنور ، ولكنَّ الناسَ — وا أسفاه — يكونون فى ساعاتهم المظلمة . . .

الشمسُ هنا جديدة ، تُثبتُ أن الجديدَ فى الطبيعة هو الجديدُ فى كيفية شعور النفس به

* * *

والقمرُ زاهٍ رقَّافٌ من الحسن ؛ كأنه اغتسل وخرج من البحر

أو كأنه ليس قمراً ، بل هو فجرٌ طلع فى أوائل الليل ؛ فقصرَته السماءُ فى مكانه ليستمرَّ الليل

فجرٌ لا يوقظ العيونَ من أحلامها ، ولكنه يوقظُ الأرواح لأحلامها

ويُلقى من سحره على النجوم فلا تظهر حوله إلا مُستبهمة كأنها أحلامٌ معلَّقة

للقمر هنا طريقةٌ فى إبهاج النفس الشاعرة ، كطريقة الوجه المعشوق حين تقبِّله أولَ مرة

* * *

و « للربيع المائى » طيورُه المغرِّدة وفَراشُه المتنقِّل

أما الطيور فنساءٌ يَتَضاحَكْنَ ، وأما الفراشُ فأطفالٌ يتواثبون

نساءٌ إذا انغمَسْن فى البحر ، خيِّلَ إلىَّ أن الأمواج تَتَشاحنُ وتتخاصمُ على بعضهن . . . .

رأيتُ منهن زهراءَ فاتنةً قد جلست على الرمل جِلْسَةَ حوَّاءَ قبل اختراع الثياب ، فقال البحر : يا إلهى . قد انتقل

---

* كتبنا فى (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف كثيرة للبحر

معنى الغرق الى الشاطئ . . . إن الغريق من غرق في موجة الرمل هذه . . . .

* * *

والأطفالُ يلعبون ويصرخون ويضجُّون كأنما اتسعت لهم الحياةُ والدنيا

وخيِّل الىّ أنهم أقلقوا البحر كما يُقلقون الدار ، فصاح بهم : ويحكم يا أسماكَ التراب . . . ! ورأيتُ طفلاً منهم قد جاء فوكَزَ البحرَ برجله ! فضحك البحر وقال : انظروا يا بني آدم ! !

أعلى الله أن يَعْبَأ بالغرور منكم إذا كَفَرَ به ؟ أعلىّ أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقول إنه ركلني برجله . . . ؟

* * *

أيها البحر . قد ملأتك قوة الله لتُثبت فراغ الأرض لأهل الأرض

ليس فيك ممالك ولا حدود ، وليس عليك سلطانٌ لهذا الانسان المغرور

وتجيش بالناس وبالسفن العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشاً تَرمي به

والاختراعُ الانسانيُّ مهما عَظُم لا يُغْني الانسانَ فيك عن إيمانه

وأنت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظَمة والهوْل ، رداً على عَظمة الانسان وهوله في الربع الباقي ؛ ما أعظمَ الانسانَ وأصغره !

* * *

يَنزلُ الناسُ في مائك فيتساوَوْن حتى لا يختلف ظاهرٌ عن ظاهر

ويركبون ظهرَك في السفن فيحنُّ بعضهم إلى بعض حتى لا يختلف باطنٌ عن باطن

تُشعرهم جميعاً أنهم خرجوا من الكرة الأرضية ومن أحكامها الباطلة

وتُفقرهم إلى الحب والصداقة فقراً يُريهم النجوم نفسها كأنها أصدقاء ، إذ عرفوها في الأرض

يا سحر الخوف . أنت أنت في البحر كما أنت أنت في جهنم

* * *

وإذا ركبك الملْحِدُ أيها البحر ، فرجفت من تحته ، وهدَرْتَ عليه وثُرت به ، وأريتَهُ رأيَ العين كأنه بين سماءين ستنطبقُ إحداهما على الأخرى فتُقْفَلان عليه ، تركتَه يتَخَبَّطُ ويتواضع ، كأنك تهزُّه وتهزُّ أفكاره معاً وتُدَحْرِجَهُ وتدحرجُها

وأطَرْتَ كل ما في عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل

وكشفتَ له عن الحقيقة أن نسيان الله ليس عمَل العقل ، ولكنه عملُ الغَفلة والأمن وطولِ السلامة

* * *

ألا ما أشبَه الانسانَ في الحياة بالسفينة في أمواج هذا البحر !

إن ارتفعت السفينةُ ، أو انخفضت ، أو مادت ، فليس ذلك منها وحدها ، بل مما حولها

ولن تستطيع هذه السفينةُ أن تملك من قانون ما حولها شيئاً ، ولكن قانونها هي الثبات ، والتوازن ، والاهتداء إلى قصدها . ونجاتُها في قانونها

فلا يعتبنَّ الانسانُ على الدنيا وأحكامها ، ولكن فليجتهد أن يحكم نفسه

كتبت في شاطئ سيدي بشر
(اسكندرية)

مصطفى صادق الرافعي

ظهر حديثاً :

في أصول الأدب

صفحات من الأدب الحي والآراء الجديدة

بقلم

احمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع المكاتب

وثمنه ١٢ قرشاً عدا أجرة البريد